جدلية اللفظ والمعنى عند الجاحظ

The dialectic of the pronunciation and meaning of Al-Jahiz

الدكتور: محمد تنقب[1]*

جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف، mohammed.tankeub@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/07/30 تاريخ القبول: 2021/08/16 تاريخ النشر: 2021/08/31

ملخص:

لقد كانت قضية اللفظ والمعنى محطّ جدل لدى الباحثين منذ القدم، ومن الذين أسالوا الحبر الكثير فيها: الجاحظ(ت255)، فهو القائل: " المعاني مطروحة في الطريق... وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج... ".

على ضوء هذا القول جاء موضوع بحثنا هذا الموسوم بـ :"جدلية اللفظ والمعنى عند الجاحظ". حيث نحاول فيها توضيح –قدر ما استطعنا – إشكالية رأي الجاحظ في هذه المسألة و إلى أي تيار ينتمي وما هي الجهود التي قام بها في إثراة اللغة العربية.

كلمات مفتاحية: اللفظ؛ المعنى؛ الجاحظ؛ اللغة.

Abstract:

The issue of pronunciation and meaning has been a subject of controversy among researchers since ancient times, and among those who asked a lot about it was Al-Jahiz, who said: "The meanings are on the way… but the issue is in establishing the weight, choosing the pronunciation and the ease of exit…"

In light of this saying, the subject of our research came, which is tagged with: "The dialectic of pronunciation and meaning according to Al-Jahiz." Where we try to clarify - as much as we used - the problematic of Al-Jahiz's opinion on this issue, to which current he belongs, and what efforts he made to enrich the Arabic language.

Keywords: pronunciation; the meaning; Al-Jahiz; The language.

* المؤلف المرسل.

1. مقدمة :

لقد كانت قضية اللفظ والمعنى الشغل الشاغل عند النقاد قديما وحديثا، وأسالوا فيها الحبر الكثير؛ وذلك لكثرة الاختلافات التي حدثت حولها بين من يتصر للفظ دون المعنى، وبين مَن يجعل المعنى أهمّ شيء في اللغة، وبين من يعدل كفة الميزان ببين اللفظ والمعنى لأنّ بهما تقوم اللغة.

وإذا نظرنا إلى فكرة اللفظ والمعنى فإنها ليست خاصة بالأمة العربية فقط؛ بل هي قضية خاصة بالإنسان عامة؛ بحيث لا يمكن أن نربطها بنشأة البلاغة العربية فقط، بل كانت جوهر التفكير الغربي واليوناني؛ نقصد بذلك فلسفة أفلاطون وأرسطو، ثمّ تطورت مع الفرق الكلامية كالأشاعرة والمعتزلة والجهمية... حيث أرادوا التمييز بين الكلام اللفظي والكلام النفسي.

على ضوء هذال الكلام جاءت ورقتنا البحثية لتفتيش في هذه الظاهرة الجدلية؛ محاولين البحث في إشكالية رأي الجاحظ فيها، والهدف من خلالها وضع النقاط على الحروف في القضية عنده.

2.قراءة مفهوماتية للفظ والمعنى:

قبل الغوص في لب قضية اللفظ والمعنى لا بأس أن نفتش في جانبها اللغوي حتى نضع يد المتلقي لهذه المادة على المقصود منها من خلال تعريف العرب القدامى في مصنفاتهم.

هذا ابن منظور يعرف اللفظ قائلا: "لفظ: اللَّفْظُ: أَن تَرْمِي بِشَيْءٍ كَانَ فِي فِيكَ، والفِعلُ لَفَظ الشيءَ، يُقَالُ: لَفَظْتُ الشَّيْءَ مِنْ فَمِي أَلفِظُه لَفْظًا: رَمَيْتُهُ" (ابن منظور، 1414هـ، الصفحات مادة ل-ف-ظ). أي أنّ اللفظ هو الكلام الخارج من الفم.

وفي تعريف آخر: "اللفظ: ما يتلفظ به الإنسان - أو مَن في حكمه - مهملًا كان أو مستعملًا"، وقال في تعريف " المعنى: ما يقصد بشيء" (الشريف الجرجاني، 1983، الصفحات مادة ل-ف-ظ)؛ زيد في هذا التعريف قضية الكلمات المستعملة في الجانب التواصلي وغير المستعملة، وكذلك عرف المعنى على أنه ما يقصده الأنسان.

وذكر في المقاييس: "(لفظ): اللام والفاء والظاء كلمة صحيحة، تدل على طرح الشيء، وغالب ذلك أن يكون من الفم، تقول: لفظ بالكلام يلفظُ لفظًا، ولفظتُ الشيء من فمي...، وهو شيء ملفوظ

ولفيظ" (ابن فارس، 1979، صفحة 259). من خلال هذا نرى بأن المعاجم قد تشارت في تعريف اللفظ و المعنى.

تضاربت الآراء وتقاطعت كثير من جهة النقاد والبلاغيين، إلا أنّها لم تصل للدرجة التي كانت عليها مع الفرق الكلامية؛ فعند التنقيب في دراساتهم نجد أنّ "منهم مَن يردُّ أهمَ مقوِّمات العمل الأدبي، وأقوى دعائِم نجاحه إلى المعنى، مقللًا من شأن اللفظ في ذلك، ومنهم مَن يردها إلى اللفظ، ومنهم من يسوي بينهما" (مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، 1998، صفحة 196)، من خلال هذ الكلام يمكن القول أن منهم من يرد جمال الأدب في جمال ألفاظه وحسن اختيارها، ومنهم من يرى قوة العمل الإبداعي في قوة ومتانة معانيه، ومنهم من يجمع بين حسن التفنن في اخيار اللفظ الذي يناسب الدلالات المقصودة.

3.جدلية اللفظ والمعنى في الفكر الغربي القديم:

من المسلّم به أن جل العلوم بنيت على أنقاظ الفكر اليوناني القديم وخصوصا ما تعلق منها بجانب الأمور الفلسفية، وما قضية اللفظ والمعنى عنهم ببعيدة، والذي لا ريب أنّ أفلاطون قد رجَّح كِفَّة المعنى؛ حيث قال بأسبقية الوعي على المادة، "وينطلق في هذا من إيمانه واستناده إلى الفلسفة المثالية، التي ترى أن الوعي أسبق في الوجود من المادة" (شكري عزيز الماضي، صفحة 18)، حسب أفلاطون الأفكار والدلالات تملك الأولوية على الألفاظ، وفي نظره لانّها لايعتريها الشك؛ فهي حقائق مطلقة توجد في عالم المثل، أما الألفاظ فليس سوى صور لها، ولقد شبهها بالمرآة إذ يقول: "إن عمل الأديب يُشبِه عمل المرآة؛ أي إن محاكاتَه للأشياءِ والظواهر آليةٌ فوتوغرافيةٌ؛ أي حرفية، ولذلك فهو لا يقدم سوى صورٍ مزيفة لا حاجة لنا بها؛ لأن ما نحتاجه وينفعنا هو الأصل لا الصورة" (شكري عزيز الماضي، صفحة 18)، نري ههنا أنّ أفلاطون قد أعطى مصطلحين مقابلين للفظ والمعنى؛ ألا وهما الأصل والصورة، فالأصل يمثل المعنى والصورة تمثل اللفظ.

4.جدلية اللفظ والمعنى في الفكر العربي القديم الجاحظ أنموذجا:

لقد كان للشعر مكانة عظيمة عند العرب قديما؛ إذ يعتبرونه ديوانهم الذي يعبرون فيه عن أفراحهم وأقراحهم، وقد صب فيه الدارسون جل اهماماتهم، وركزوا على عديد القضايا، كقضية اللفظ والمعنى، وقضية المطبوع والمصنوع، وقضية الصدق والكذب، وقضية السرقات الشعرية، وقضية عمود الشعر وغيرها من القضايا.

ومن الذين محصوا ودققو النظر في قضية اللفظ والمعنى اللغوي الكبير الحاجظ (ت255)، فهو القائل:" المعاني مطروحة في الطريق... وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج... فإنّما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير" (الجاحظ، 1982م، صفحة 269). يظهر لنا من خلال هذا القول أن الجاحظ ينتصر للفظ عل حساب المعنى، فهو جعل حسن الشعر في حسن اخيار اللفظ، وكأنّ الشعر صورة، ولكن حين التفتيش في شخصية الجاحظ نجده معتزلي العقيدة، والمعروف عن المعتزلة أنهم يفضلون المعاني ولا يهتمون للألفاظ، حتى يبرهنوا على حججهم، وإقناع خصومهم، إذا فلا بد أنّ الجاحظ قد أدرك أن المعنى كما يفهمه المعتزلة، المعنى العقلي المنطقي، إلا أنه لايصنع الشعر، فأراد من خلال مقولته تلك أن يربط الشعر بالعنصر الآخر، وهو اللفظ.

ولعل اللفظ عند الجاحظ لا يقصد به المعنى اللغوي الذي ذكرناه سابقا بل يقصد به المعنى الشعري، الذي يقابل المعنى العقلي. أي أنَّ الجاحظ لم يهتم باللفظ الذي هو أصوات، وإنّما المعنى الشعري، وهو إذ يعبر عنه باللفظ أدّل على المعنى الشعري وأقرب مصطلح يدل على الشعر.

والواضح عند الجاحظ ليس ما ذهب إليه عددٌ من الباحثين، الذين يرون أنه ينتصر للألفاظ على حساب المعاني، مرتكزين في ذلك على قولته الشهيرة: (المعاني مطروحة في الطريق)؛ بل إنّ الراجح في القضية أن الجاحظَ كان مِن أصحاب الموازنة والمساواة بين اللفظ والمعنى في الأهمية؛ والدليل على ذلك أنه صوّر اللفظ والمعنى كالجسد والروح؛ إذ إن "الأسماء في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدنٌ، والمعنى للفظ روح" (الجاحظ، 1982، صفحة 44).

والذي يزيد الأمر وضوحًا ما ذكره الجاحظ نفسه في كتابه البيان والتبيين: "مَنْ أرادَ معنًى كريمًا فليلتمسْ له لفظًا كريمًا، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف" (الجاحظ، 1982، صفحة 134).

وخلاصة الكلام ههنا أنّ الجاحظ قد وازن بين اللفظ والمعنى، ولم ينتصر -كما قيل- للفظ على حساب المعنى أو العكس.

5. تقاطع رأي الجاحظ مع الآراء الأخرى:

لا شكّ أنّ قضية اللفظ والمعنى قد خاض فيها الكثير من علماء اللغة، ومنهم ابن قتيبة (ت276)، "الذي أدرَك لحمة المعنى واللفظ في إطار الصياغة الواحدة" (الأخضر الجمعي، 2001، صفحة 62)، وقد عرف عنه أنه كان يقسم الشعر إلى عدة أضرب هي:" ضربٌ منه حسُن لفظه وجاد معناه، و ضربٌ منه حسن لفظه وحل، فإذا أنت فتَّشته لم تجد فائدةً في المعنى، وضربٌ منه جاد معناه وقَصُرتْ ألفاظُهُ عنه، ضربٌ منه تأخَّر معناه وتأخر لفظه" (ابن قتيبة، 1423هـ، الصفحات 65-67-69). ممثلا لكل ضرب ومن هذه الضروب.

وآزره في ذلك قدامةَ بنِ جعفر (ت337)، برأيه أن الإبداعات الأدبية لا يمكن أن تكون إلا بإتلاف عناصرها المكونة لها وهو ما اصطلح عليه بالمساواة، "وهي أن يكون اللفظُ مساويًا للمعنى، حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلًا، فقال: كانت ألفاظُه قوالبَ لمعانِيهِ؛ أي هي مساويةٌ لها لا يفضُلُ أحدُهُما على الآخر" (قدامى بن جعفر، 1302هـ، صفحة 55).

وقد تصدر اللفظ والمعنى عند المرزوقي (ت421)، عمود الشعر الذي وضعه؛ وقد كان آخرَ حلقةٍ في تطورِ هذه القواعد، ومعه استوت على سوقِها، حيثُ ذكر:

- " شرف المعنى وصحته.
- جزالة اللفظ واستقامته.
- الإصابة في الوصفِ.
- المقاربة في التشبِيه.

•التحام أجزاءِ النظم والتئامها على تخيرٍ من لذيذِ الوزنِ.

•مناسبة المستعار منه للمستعار له.

•مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا تكون منافرة بينهما" (المرزوقي، 1431هـ، صفحة 35).

وجعل لكل واحد عيار وميزان، وقال في عيار اللفظ : "وعيار اللفظ الطبعُ والرِّوايةُ والاستعمالُ، فما سلِم ممَّا يُهجنهُ عند العرضِ عليها، فهو المختارُ المستقيم" (المرزوقي، 1431هـ، صفحة 36).

و في الأخير يأتي عبد القاهر الجرجاني الذي اطلع على مختلف الآراء النقدية في قضية اللفظ والمعنى، وقد "اجتمعت لديه آراؤهم، وأفاد مِن خبرتِهم، ولكنه تجاوزهم إلى رأي خاص، وكانت له في هذا المجال أصالة وتعمق، وكان صاحب مدرسةٍ في النقد، أدرك فيها ما لم يُدرِك النقادُ" (مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، 1998، صفحة 198).

والمشهور عن عبد القاهر الجرجاني أنه بحث في جل القضايا اللغوية المتعلقة بالإعجاز القرآني، وأهم قضية بحث فيها هي عَلاقة اللفظ والمعنى بالإعجاز القرآني، التي عرفت فيما بعد بـ:(**نظرية النظم**)، حيث "صاغ فلسفَتَه البلاغية التي جعل محورَها نظريتَه في النظم التي ربط فيها بين اللفظ والمعنى وبين دلالة الألفاظ الأسلوبية ودلالاتها الثانوية، وجعل النظمَ وحدَهُ هو مظهر البلاغة ومثار القيمةِ الجماليةِ في النصِ الأدبي" (مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، 1998، صفحة 199).

وخلاصة القول بعد هذه الإطلالةَ التي مست آراء أهم النقاد، التي تدل على أن جلَّهم ذهبوا إلى الموافقة والموازنة بين اللفظ والمعنى، في حين الذين ناصروا اللفظ على حساب المعنى أكثرِهِم علماء اللغة؛ لأن الألفاظ هي الأساس الذي تبنى عليه القواعد اللُّغوية من نحو وصرف وبلاغة وغيرها.

6.خاتمة:

إن كثرة وتنوع قضايا اللغة العربية دليلٌ واضح على ثرائه وغناها، و تعد قضية اللفظ والمعنى في الحقيقة انعكاس لهذا الاهتمام، والهدف مِن بحثنا هذا، ليس هو فقط جمع الأقوال العلماء والنقاد فقط، بل هو اطِّلاع على الفكر العربي القديم في عمومه.

ومن أبرز النتائج التي توصلنا إليها :

-قضية اللفظ والمعنى من بين أبرز القضايا التي بحث فيها النقاد وعلماء اللغة.

-يعد الجاحظ من أبرز الدارسين لقضية اللفظ والمعنى.

-لقد مهد الجاحظ لمن بعده أسس هذه النظرية، وفتح لهم الأبواب واسعة للخوض فيها.

-الجاحظ ليس من أنصار اللفظ فقط بل هو من الذين يوازنون بيه وبين المعنى .

7.قائمة المراجع:

1. ابن فارس، 1979م، معجم مقاييس اللغة، ج5، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر.
2. ابن قتيبة الدينوري، 1423هـ، الشعر والشعراء، ج1، دار الحديث، القاهرة.
3. ابن منظور، 1414 هـ، لسان العرب. دار صادر، بيروت، ط3.
4. الأخضر جمعي،2001 م، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، منشورات كتاب اتحاد الكتاب العرب، دمشق .
5. الجاحظ، 1982م، البيان والتبيين،تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ،ج1.
6. الشريف الجرجاني،1983م، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1.
7. شكري عزيز الماضي، 2013م، في نظرية الأدب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،.
8. قدامة بن جعفر، 1302هـ، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، قسنطينية، ط1.

9. المرزوقي، 1431هـ، شرح المقدمة الأدبية على ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق ياسر بن حامد المطيري، دار المنهاج، الرياض.
10. مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، 1998م، في النقد الأدبي القديم عند العرب. مكة للطباعة.